



الفصل الرابع

الكناية الخلقية

الفصل الرابع

الكناية الخُلقية

نقصد بالكناية الخُلقية: الكناية التي تتناول موضوعاً يتعلق بقيمة خُلقية إيجابية كانت أم سلبية في حدود ما ورد من كنايات قرآنية احْتُضنت تلك الموضوعات ومنها: الغيبة والنميمة، واليخل والتبذير، والشجاعة والحبس، والتكبر والتواضع، والعفة والصبر على مغريات الحياة الدنيا.. وما إلى ذلك من موضوعات تتعلق بأخلاق الإنسان وسلوكه وهو يتحرك ضمن المجتمع الذي يعيش فيه.

والقرآن حين يعرض هذه الموضوعات المهمة، فإنه غالباً لا يعرضها بتعابير ذهنية مجردة وبتقريرية مباشرة، وإنما يعرضها بالأسلوب الكنائي المصوّر للمعنى فيكون أكثر حيوية وتأثيراً، من شأنه أن يحدث الاستجابة الشعورية والوجدانية في القارئ أو السامع وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يهدف القرآن تثبيتها في ذهنه ونفسه أو تنقيحها منها. وقد حاولنا توزيع الكنايات الخُلقية إلى موضوعاتها التي عالجتُها، فاستقلت كل كناية أو أكثر بموضوع خُلقي واحد يصل إلى المتلقي عبر فن الكناية الذي يقوم بنصيبه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها خير أداء فيثقل المعنى الكبير في اللفظ القليل في طريقة يعجز التعبير الحقيقي المباشر أن يؤديه كما تؤديه الكناية في المواضع التي وردت فيها، وهذا من خصائص الكناية القرآنية^(١).

وهذه الخصائص الفنية للكناية القرآنية ستجلى عند عرض الكنايات التي يتكون منها هذا الفصل بالطريقة التي عرضنا فيها الكنايات في الفصول السابقة.

أكل لحم الأخ الميت:

يعرض القرآن بالتصوير الكنائي (الغيبة) بوصفها مرضاً اجتماعياً فتاكاً يعمل على هدم الأواصر والروابط داخل المجتمع، تلك الأواصر التي يحرص القرآن على قوتها وتماسكها، ويدل على بشاعة (الغيبة) وخطورتها التصوير الكنائي الذي عرضها، فهو

(١) ينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٦. وينظر: التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، ص ٢٠١.

يعرضها في صورة غاية في البشاعة والتنفير، ليحدث الاستجابة الشعورية المقصودة، وهي (الامتناع) عن الغيبة، وقد جاء المنع بصيغة النهي الحقيقي (لا يغتب) ثم تلتها في المعنى ذاته صورة كنانة تظل عالقة مؤثرة في ذهن المتلقي وحسّه وهو يتملّى صورتها البشعة المنفرة، وذلك في قوله - تعالى - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْقٌ وَلَا جَسَاسٌ وَلَا يَقْتَبُ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

الكناية في قوله - تعالى - ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ عرض للغيبة في صورة تنفير الأشمزاز والخوف في النفس (٢)، فلما بصور القرآن موضوعاً آخر كهذا التصوير.

وبناء الكناية قائم على التشبيه التمثيلي الضمني ومن ورائه بفهم المعنى المكنى عنه (الغيبة)، حيث شبه المقتاب أخاه بشخص يعمد إلى أكل لحم آدمي، وليس الأدمي سوى أخيه الميت، ولم يكن الأكل عن ضرورة أو إكراه، وإنما هو أكل عن اختيار ورغبة وشهية، ووجه الشبه بين المشبه (المقتاب أخاه) وبين المشبه به (صورة الذي يأكل لحم أخيه ميتاً) واضح بَيّن وهو جملة صفات أولاهها الكراهية في الاثنين (الغيبة وأكل الأخ الميت)، ومن الطبيعي أن تكون الكراهية أشد في المشبه به (الأكل) لتبرز صفة المشبه بها وتؤكد، وتأتي صفات وجه الشبه عدم الحضور في الاثنين (الشخص الذي وقعت عليه الغيبة، والميت)، وثلاثة الصفات (النهش والتمزيق) في الاثنين، ولكن النهش في الغيبة لمعنى ذهني هو (سيرة الناس وأعراضهم) أما النهش في الأكل فهو لمادة محسوسة، ولا بد أن يكون المشبه به حسياً في هذه الحالة ليخلع على المشبه العقلي ثوبه المدسوس فيحقق حضوره وقاعليته في ذهن المتلقي ونفسه.

فالتشابه واضح قريب بين الصورتين. إلا أن التصوير بالتشبيه له وقعته المؤثر في النفس، فمن يستطع أن يقبل على أكل لحم إنسان، أخ، ميت، متفسخ للبدن منه نصيب (٣) فهو التبشيع والتنفير، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " الغيبة آدم كلاب الناس " (٤).

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) ينظر: البلاغة العربية - المعاني والبيان والبيوع، د. أحمد مطلوب، ص ٢٢٩.

(٣) ينظر: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠١.

(٤) الكشاف: ٤ / ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٥) والبادي أن الاستفهام في الآية هو لتفي والإنكار وليس للتعزيز.

ويقول الزمخشري في هذا التصوير القرآني: "تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض الغائب على أقطع وجه وأفحش، وفيه مبالغات شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير^(١)، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها اسناد الفعل إلى أحدهم والأشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاعتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً، ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل سبياً، وعن قتادة: كما تكره أن وجدت جيفة مدفونة أن تأكل منها كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي"^(٢).

هذه الصورة التشبيهية تداخلت مع الصورة الكنائية في تسيح فني بنيع من التعبير القرآني الكريم لتجسيد المعنى وتحصيل الاستجابة المطلوبة إذ جعلت صورة المشيه به كناية عن صفة الغيبة من نوع الاشارة المباشرة إلى الصفة المنهي عنها فيما سبق الكناية. وبهذا التصوير القرآني للغيبة يتجلى البعد الاجتماعي، وهو بعد يحرص عليه القرآن كل الحرص، ليس في هذه الصورة الكنائية فحسب، وإنما في السورة التي انتظمت فيها، وقراءة الآية التالية للكناية تروى فيها الربط بين الغيبة والبعد الاجتماعي العام، وهي قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣).

فالآية تحصر الغرض من اختلاف النوع البشري من الذكر والأنثى، واختلاف الأماكن والشعوب والقبايل في غاية واحدة هي (التعارف) وربط الصلات الاجتماعية - التي تعمل الغيبة على تمزيقها - على كل طبقاتها ومراحلها بين الأفراد والجماعات والأمم، والجزء الأخير من الآية يشير إلى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه هذه الروابط والصلوات، وهو (التقوى) بكل ما تعنيه كلمة التقوى من معان روحية ومعان اجتماعية، إذ الميزان الوحيد للتفاضل بين الناس هو (التقوى) فالله ﷻ لا ينظر إلى الناس ولا يعاملهم إلا بهذا الميزان، وهي دعوة صريحة إلى التقوى لتكون خلقاً لكل فرد، وحيث يكون الأفراد

(١) الكشف: ٤ / ٢٩٧. وينظر: المثل السائر: ٣ / ٦٢. ومن بلاغة القرآن، ص ٢٢٦.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣. يلاحظ أن الموضوع الرئيس للسورة هو تنقية المجتمع وتنظيفه من الأمراض الاجتماعية وفي مقدمتها الغيبة.

انتقاء، فستكون صلاتهم بالضرورة قائمة على التقوى، وهو الهدف الأخير في هذا المقام (١).

ومن ثم يتضح بجلاء لماذا يشدد القرآن في الذبي عن (الغيبة) بذلك الأسلوب الكناي المصوّر لمعناها في أبشع صورة وأفحشها لينفّر النفوس منها والقلوب ولتظن حاضرة في الذهن والحس يتقيها الإنسان المؤمن وينفّر عنها، فإنها (أدام كلاب الناس) كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وقد قدّم القرآن الكريم نموذجاً من هؤلاء في صورة كناية أخرى بالغة التأثير، نلاحظ فيها (الغيبة) وهي أدام للمجرمين يقتاتون عليها أو يتلذذون بها، فتكشف عن طبيعة المجرمين الأثمين الذين اعتادوا أدام الغيبة للذيل من المؤمنين، وذلك في قوله: **وَإِذَا أَقْبَلُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنفَلُوا فَكِهِمْ** (٢).

فقد تواسجت كنيان في تصوير غيبة المجرمين للمؤمنين، الكناية الأولى: **يَنْفَلُونَ** وأصل الغمز: "الإشارة بالحن أو اليد طلباً إلى ما فيه مغاب" (٣) وطمعن، وغالباً ما تكون بالعين والحاجب (٤)، وهي حركة كناية لئيمة تنم عما وراءها من معنى مكنى عنه يتمثل في (السخرية والاستهزاء) من المؤمنين لايقاع الأذى في قلوبهم، وهي في الوقت نفسه تكشف عن سوء أدب المجرمين وتجردهم من التهذيب.

ويتصاعد سوء أدبهم بالكناية الثانية: **وَإِذَا أَقْبَلُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنفَلُوا فَكِهِمْ** أي سستمعين مبتهجين، وأصل الكناية: **فَكِهِمْ** من: "تفكه القوم: أكلوا الفاكهة، وفكيتهم أنا. ومن المجاز: تفكه بكذا إذا تلذذ به، وتركتهم يتفكهون بعرض فلان أي يتلذذون باغتيابه، وفلان فكاة بأعراض الناس" (٥) وهذا هو المعنى المكنى عنه: اغتياب المؤمنين والاستخفاف بهم.

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٧٨.

(٢) سورة المطففين، الآيات: ٢٩-٣١.

(٣) المفردات، ص ٥٤٨.

(٤) ينظر: أساس البلاغة، ص ٣٢٨ (غمز). وينظر: لسان العرب: ٥ / ٣٨٨ (غمز).

(٥) أساس البلاغة، ص ٣٤٦ (فكة).

ونلاحظ عمق الكناية في دلالتها التي تكشف عن نفوس المجرمين ومشاعرهم تجاه المؤمنين وذلك من خلال بنية الكناية على مهاد حسي هو النهم في أكل الفاكهة والتلذذ به والسعي إلى معلودته. وفي ذلك إحياء بان نفوس المجرمين قد أصبح شغلها الشاغل هو غيبة المؤمنين، فهي الهدف الذي يحرص عليه المجرمون فيتلذثون به، ولا تنفكه النفس ولا تلذذ إلا بشيء قد اعتادته ولازمته. و صورة انقلاب المجرمين على أهلهم بهذا الهدف الحقير الذي اعتادوه بصور منتهى ما تصل إليه النفس من ضعف واسفاف في السلوك والأخلاق.

ومن وراء الكنيتين ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ و ﴿فَكَيْفَ﴾ نحس إحياء يتمثل في قوة الشخصية المؤمنة المترنة و هي تلقي الأذى (الغيبة) والسخرية والاستهزاء بصير بغيط قلوب المجرمين ونفوسهم.

حمالة الخطب:

يرد هذا التعبير الذي يمكن حمله على الكناية، فيفهم أولاً على المعنى الحقيقي القريب، ومن ثم فهمه على المعنى الكناني البعيد، وذلك استناداً إلى طبيعة الفن الكناني الذي يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي، فضلاً عن إرادة لازم معناه مجازاً. والبادي في هذا التعبير القرآني من سورة الهمز الذي يسخر من أم جميل زوج أبي لهب سخرية لاذعة، وهو قوله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا أُمَّكَ حَمَلَةَ الْخَطْبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسٍ﴾^(١).

البادي إرادة المعنيين الحقيقي القريب والمجازي البعيد لاتصال أحدهما بالآخر اتصالاً يكمل الصورة بمعانيها وإحياءاتها التي يهدف القرآن تأديتها في إخراج وصف أم جميل التي كانت شديدة العداوة والإيذاء للرسول ﷺ كما أخبر القرآن.

والمعنى القريب لقوله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا أُمَّكَ حَمَلَةَ الْخَطْبِ﴾ كما أشار المفسرون أن زوج أبي لهب "كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتثرت بها بالليل في طريق النبي ﷺ" (٢) لإيذانه. ولكن صورة (حمل الخطب) تشير إلى معنى مكنى عنه آخر هو

(١) سورة المسد، الآية ٤: ٥.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢١١ / ٩. وينظر: الكشاف: ٤ / ٦٥١. وينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٧ / ٥٧٦.

(*) النميمة: مرض اجتماعي يعمل على إثارة الفتنة والعداوة والبغضاء بين أفراد. والنميمة: هي تزيين الكلام بالكتب، ونقله من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر. (ينظر: لسان العرب، مادة "نم")

(النميمة) ^(٢) و يورد ابن قتيبة هذا المعنى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله: " قال ابن عباس: الحطب: النميمة وكانت تُلْمُ وتؤرّش بين الناس. ومن هذا قيل: (فلان يحطب عليّ) إذا أغرى به، شَبَّهوا النميمة بالحطب، والعداوة والشحناء بالنار، لأنهما يقعان بالنميمة، كما تُلْتَهَب النار بالحطب " ^(١) وقال الزمخشري: " وقيل: كانت تمشي بالنميمة. ويُقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم، أي: يوقد بينهم النار. ويورث الشر " ^(٢).

وفي كلا المعنيين القريب والمكنى عنه البعيد الذي تُوحي به الصورة الكنائية **حَمَالَةُ الْحَطَبِ** تتجلى سخرية القرآن من أم جميل بجلاء، لأن صورة حمل الحطب على الحقيقة فيها مهانة وسخرية، فالذي يجمع الحطب ويحمله عند العرب - عادة - أما العبيد الأرقاء أو الفقراء المعدومون، فجامعو الحطب ليسو من السادة، بل ليسو من أوساط الناس، وإنما هم في درجة من صغر الشأن قد يُضرب بها المثل في هذا الشأن الهين الصغير " وسخرية القرآن تختار هذه الصورة من الهوان الاجتماعي في نظرهم، لا لتسويه بها رجلاً، فالعمل الحلال أياً كان نوعه في الإسلام شرف ونوع من الجهاد، وإذا اختارت سخرية القرآن هذه الصورة لتكسر بها من شموخ أنف امرأة متعالية طاعية، تحمّي بمجد الآباء والأجداد، وتندرع براء الزوج والأولاد، فتبغى على المسلمين، وتصد عن سبيل الله ودينه الحنيف، ومن الواضح أن امرأة بهذه المنزلة في قومها، وبهذه العزة في أنفها، يدلع منها أيّما مبلغ أن تصور في صورة جامع الحطب " ^(٣).

فصورتها مجرد حمالة حطب صورة مضحكة، فضلاً عما تشير إليه من خلق (النميمة) التي كانت تسعى فيها بين الناس لتأليبهم على عداوة رسول الله ﷺ وإيذانه. وتتعمق دلالة السخرية منها بالكناية التالية: **﴿ فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِّنْ نَّسَمٍ ﴾** أي: " في عنقها حبل من ليف قد قتل قتلاً شديداً، تُعَذَّب به يوم القيامة، قال مجاهد: هو طوق من حديد، وقال ابن المسيب: كفت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأنفقنها

وقد حارب القرآن هذا المرض الاجتماعي وأشار إلى خطورته، وسخر من كل همار مشاء ذميم. ينظر: سورة القلم، الآية: ١١.

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٥٩-١٦٠. وينظر: روح المعاني: ٩ / ٤٨٠.

(٢) الكشاف: ٤ / ٦٥١. وينظر: المنتخب من كنزيات الأدياء وإشارات البلغاء، ص ٨.

(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٥٤.

في عداوة محمد، فأعقبها الله من ذهابها حبلاً في جديدها من مسد النار" (١)، وهذا هو المعنى القريب الذي أشار إليه المفسرون، ولكن الآية تُشير إلى معنى مُكنى عنه بعيد هو صفة الاتقياد الأعشى إلى الأذى والانقمام من الرسول ﷺ والمسلمين وهذا المعنى قد وصف القرآن به المشركين في مواضع أخرى (٢) والكناية جسدت هذه الصفة بالتعبير عنها بحبل من مسد المرثي والملموس فعلة ليترسخ المعنى في نفس المتلقي ويتجنب المسلم هذه الصفة.

وبالنظر إلى سورة المسد أو اللهب يتجلى ملحظ فني وجمالي للكنائيتين فيها، وبحسن بنا إيرادهما ليتضح ذلك: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَخَصَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَكٍ ۚ﴾ إذ أن الكنائيتين تتناسقان مع الأداء التعبيري للسورة في موضوعها وإيحائها، فالسورة تجترح لعبد الغزى زوج أم جميل اسماً جديداً على سبيل الكنية (أبو لهب)، وهي كنية يكسوها لهب ونار، وهو ﴿سَخَصَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾، والحطب وقود النار. وهي متصلاها وفي عنقها حبل من مسد، وبذلك يتجلى "تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة. فجهم هنا نار ذات لهب. يصلها أبو لهب ! وامراته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي)، والحطب مما يوقد به اللهب. وهي تحزم الحطب. فعذابها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد. ليتم الجزء من جنس العمل، وتتم الصورة بمحتوياتها: الحطب والحبل. والنار واللهب. يصلى به أبو لهب وامراته حمالة الحطب" (٣). وترسم في ذهن القارئ أو السامع صورة هذه المرأة وهي في حركة آلية دائبة تحمل الحطب وتضرم النار وتغذيها بالوقود ليستعر أوارها من دون أن تدري بأن زوجها هو الذي يوصلها وأنها ستلحق به.

غل اليد إلى العنق وبسطها كل البسط:

من الكنايات المصورة الموحية قوله - تعالى - ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۚ﴾ (٤)

(١) صفوة التفسير: ٦١٩ / ٣. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ٢٤٢.

(٢) ينظر: سورة الأعراف، الآية: ١٧٩. وسورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٦٩٩ / ٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٩. وترد صورة (غل اليد) في موضع آخر من القرآن في سورة المائدة، الآية: ٦٤، كناية عن بخل اليهود.

حيث ينهي القرآن عن (البخل والتبذير)، ويحث على التوازن في الانفاق، والتوازن هو القاعدة الكبيرة في القرآن الكريم. قال - تعالى - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾^(١)، لذلك فكل غلو أو تفريط يخل بهذا التوازن مذهبي عنه، فالبخل هو تفريط، والتبذير إفراط وإسراف، وكلاهما ليس من الفضائل التي يحث عليها القرآن.

ويدرك الفلاسفة الفضيحة بأنها وسط بين رذيلتين^(٢). فالجود يعد فضيلة، ولكن الجموح فيه يعد رذيلة، كما أن الاقتصاد والتبذير محمود ولكن المغالاة فيه مذمومة.

وحين ينهي القرآن عن (البخل والتبذير)، فإنه لا يسلك في ذلك التعبير الذهني المجرد، وإنما ينهي عنهما قويا مؤثرا، وهذه سمة من سمات الكناية عامة، فهي وسيلة تعبيرية محسوسة تعلق بالنفس وتثيرها لأنها تبدي المعنى في صورة حسية، والصورة الحسية أكثر تأثيراً من المجردة لأنها أقرب إلى التصور وأدعى إلى التمثل في الخيال، وبذلك تكون أسرع إلى الفهم وأكد في أحداث رد الفعل، قال عبد القاهر الجرجاني: "إن أثبات النصفة باثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تحيء إليها فتثبتها ساذجاً غفلاً"^(٣).

فالكناية ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ هي صورة تمثيلية حركية، مركبة من صورتين على سبيل التضاد والطباق ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ إزاء إزاء ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ على سبيل (الف والنشر)^(٤) المرتب، أي عاد لفظ ﴿مَلُومًا﴾ إلى صورة غل اليد إلى العنق، وعاد لفظ ﴿تَحْشُرًا﴾ إلى صورة بسط اليد كل البسط على الترتيب، وذلك لبيان عاقبة كل صورة تباعاً.

ولكون اليد آلة العطاء يوظفها القرآن في التعبير عن صفتي التقدير والتبذير في صورة قريبة إلى الذهن والحس. فلنلاحظ اليد مغلولة إلى العنق ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن (البخل)^(٥) إلا أن هذا المعنى المكنى عنه يصل إلى المتلقي في صورة

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٤٣.

(٢) ينظر: الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، د. توفيق الطويل، ص ٥٨. وينظر: تهذيب الأخلاق، يحيى بن عدي، ص ٢٤. وينظر: المذاهب الأخلاقية الكبرى، فرانسوا غريغوا، ص ٤٢.

(٣) دلالات الإعجاز، ص ١١٠-١١١.

(٤) الف والنشر: أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكل منهما شيئاً من غير تعيين اعتماداً على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منهما، ورده إلى ما هو له. وهو نوعان: النشر فيه على ترتيب الآف، والنشر على خلاف ترتيب الآف. ينظر: خزنة الأدب، ص ٦٦. وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والتدريج، ص ٣٧٦-٣٧٧.

طريقة. فالبخيل في هذه الصورة الكنائية ليس هو مجرد بخيل يمنع عطاءه عن الناس في كل حين، ويكتنز ما عنده، شحيحاً على نفسه.. وإنما هو إنسان مغلول اليدين في صورة غريبة، لأن يديه ليست مغلولتين إلى أمام كما هو مألوف، وإنما يذاه مغلولتان إلى عنقه فلا يستطيع حركة. إنها صورة تتناسب موضوع البخل بما فيها من قوة تصوير وغرابة، وذلك لأن البخل - فيما يبدو - هو أشد ضرراً من صدّه (التبذير)، وأكثر كرهاً إلى النفس، لذلك نجد القرآن في عدة مواضع يصف الذين يقولون أنفسهم الشح بالفلاح^(١)، وذلك لتجذره في النفس والتمكّن منها، والبخل أقرب إلى الشر من (التبذير) الذي كُتي عنه بهذه الصورة ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ السَّوْءِ﴾ وهي صورة تخفّ قوتها في التصوير إزاء كناية (البخل)، وذلك لأن التبذير - وإن كان مذموماً - هو قريب في طبيعته من الخير والمنفعة.

وصورة غل اليد إلى العنق توحى بالقيد الزمان من الحركة، وفي هذا إسكاف عن العطاء، كما أنّ بسط اليد يوحى بالخلو التام، وفي هذا دلالة على العطاء الكثير الذي لم يبق شيئاً ويمكن أن نعد ذلك تلويحاً.

ثم تصور الآية ما تنتهي إليه الصورتان الكنائيتان بذلك التعقيب الموحى: ﴿فَمَنْ مَلُومًا تَحْسَبُهَا﴾. واللافت للنظر في هذا التعقيب قوله ﴿تَحْسَبُهَا﴾ فضلاً عن ﴿فَمَنْ مَلُومًا تَحْسَبُهَا﴾. معاني الحسير: الدابة تعجز عن السير فتقف من الإعياء والتعب، قال ابن منظور: "حسرت الدابة والناقة حسراً واستحسرت: أعيتت وكَلَّتْ.. والعرب تقول: حسرت الدابة إذا سبّرتها حتى ينقطع مثيرها"^(٢)، وهكذا (البخيل والمُسرف) كلّ منهما يحسر نفسه فيوقف عاجزاً متعباً، فضلاً عن أن في التعبير القرآني دلالة ساخرة من البخيل والمُسرف، فكلاهما بالتصوير (قاعد) "فالبخيل قاعد وكأنه ملازم للأرض كشخص مقعد، ولكنه يتلقى اللوم الذي ينهال عليه من كل جانب، والمبذر أيضاً قعيد الأرض بعد أن نفذ ماله، ويمكن أن نتمثله جالساً مطرقاً إلى الأرض، شارد الذهن، يفيض أسى وحسرةً وأماً، فلم يجد من ماله شيئاً، ولم يجد من الذين أحسن إليهم حتى المواساة، ولم يجد ممّا كان يهدف إليه من

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٦. ويتنظر: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠١. وينظر: البلاغة العربية - المعاني والبيان والبيوع - ص ٢٢٩.

(١) ينظر: سورة الحشر، الآية: ٩. وسورة التغلّب، الآية: ١٦. وكلا الموضعين في سياق الحث على الإنفاق. أما الموضع الآخر الذي ورد فيه لفظ (الشح) فهو في سورة النساء، الآية: ١٢٨. يشمل معنى البخل في الإنفاق ومعنى آخر في سياقه (سياق الصلح بين الزوجين).

(٢) لسان العرب: ٤ / ١٨٨ (حسر).

إبراز ذاته بين الناس شيئاً، بل وجدها أمعنت في الانزواء من حيث أراد لها الظهور ^(١). وهكذا تظل صورة البخل وصورة التبذير عالقة في الحس والوجدان تفعل فعلها، وما كان أي تعبير آخر أن يبلغ إلى الحس ما يبلغه هذا الأسلوب الكناي.

قبض اليد:

ويصور القرآن (البخل) بكناية (قبض اليد) في سياق وصف المنافقين والمنافقات، مما يوحي بأن (البخل) من مقومات الشخصية المنافقة، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ^(٢)﴾. الكناية: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ تصيف صفة جديدة للمنافقين تتمثل في (البخل). قال ابن قتيبة: "يمسكون عن العطية، وأصل هذا: أن المعطي بيده يمدّها ويسطّها بالعطاء، فقيل لكل من بخل ومنع: قد قبض يده ^(٣)".

والتمثيل الكناي يوحي بقوة هذه الصفة في شخصية المنافقين وتمكّنها في أنفسهم، وذلك لأن "القبض تناول الشيء بجميع الكف، نحو قبض السيف وغيره. وقبضها عن الشيء جمعها قبل تناوله، وذلك إمساك عنه، ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل: قبض ^(٤)". فهي حركة تشير إلى الإمساك النفسي للمنافقين (البخل) عن الإنفاق، والقبض على الشيء فيه إحياء القوة في الإمساك، وهو إحياء يناسب دلالة البخل المقترنة بالمنافقين، لأن النفوس المتنافقة هدفها المنفعة الذاتية، لا تعرف البذل والتضحية، بل البخل من المقومات الأساس فيها، ويؤكد هذا الإحياء ويقويه صيغة الكناية بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث ^(٥)، فهي صفة متجددة للمنافقين في كل وقت.

فالكناية تجسد الحالة النفسية للمنافقين المطبوعة على الشح والبخل في صورة حيّة تتمثل بحركة اليد في وضع يشي بالحرص على الشيء والامتناع عن إعطائه فضلاً عما قرره الآية من صفاتهم الأخرى.

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ١٨٤ .

(٢) سورة التوبة ، الآية: ٦٧ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٦٧ .

(٤) المفردات ، ص ٥٩٠ .

(٥) ينظر: معاني الأبنية في العربية ، ص ٩ .

النقيير:

وبصوّر القرآن يخل اليهود بكناية (النقيير) في قوله - تعالى -: ﴿أَمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (١).

الكناية: ﴿نَقِيرًا﴾ تجلي جانباً من شخصية اليهود التي عرضها القرآن في مواضع شتى، وهنا تتجلى صفة الأثرة البغيضة، والبخل الشديد بوصفه طبيعة أصيلة دائمة، كما توحى الكناية، فالنقيير أصله: "النُّكْثَةُ في ظهر النواة" (٢)، والنقيير يُضرب به المثل في الشيء الطفيف (٣)، فهو رمز عن الشيء التافه الحقيق الذي تُضنُّ به نفسية اليهودي. فالكناية تجسد بخلهم على نحو مخصوص (٤)، فهل هناك أحقر من نكثة أو نقرة في ظهر نواة تُشجُّ بها النفس وتأتي أن تُعطى لها للناس، فالكناية على بساطتها التعبيرية تجسد المبالغة في المعنى إلى أقصى ما تكون عليه النفس من أثره وبخل. فكيف الحال لو كان لهم نصيب من الملك؟ إذن لهلك الناس جميعاً من دون أن يعطوهم الشيء الحقيق التافه ﴿نَقِيرًا﴾.

والكناية وإن كانت تقرر حقيقة الشخصية اليهودية في جانب من جوانبها، إلا أنها تجلي سخرية القرآن منهم في أعلى صورة وهي تدمعهم بصفة البخل، وتكشف عن حرصهم على حياة في أحقر صورة، وأن نفوسهم قد نضبت من أي باعث إنساني يحركها لإيتاء الناس شيئاً ولو كان ﴿نَقِيرًا﴾.

بل هم لا يتحرجون حتى مع الله ﷻ من قولهم الاثم في أبشع صورته كما يحكي عنهم القرآن في موضع آخر يتصل بمعنى الكناية ويقويها، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَمْسُوا مَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ (٥).

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل وإثبات هذه الصفة لديهم، لذلك فهم أبخل خلق الله لأن الدعاء من الله قضاء نافذ. قال الزمخشري: "معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأكدهم فإن قلت: كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم فيريدون بخلًا إلى بخلهم

(١) سورة النساء، الآية: ٥٣.

(٢) أساس البلاغة، ص ٤٧٠ (نقر).

(٣) المفردات، ص ٦٧٧.

(٤) الملاحظ على كناية ﴿ث﴾ ج أنها لم تأت في القرآن كناية عن البخل إلا في هذا الموضع وصفا لليهود فهي تختص بهم.

(٥) سورة المائدة، من الآية: ٦٤.

ونكداً إلى نكدهم " (١) فهي طبيعة ثلثة فيهم، إلا أن الكناية في تصويرها القوي بغل أيديهم دالة على بخلهم الشديد المتأصل في أنفسهم، فهي لا تتحرك إلى عطاء ولو كان ﴿تَقِيّاً﴾ وبذلك تتواشج الكنيتان في التصوير والتعبير.

منع الماعون:

ويعرض القرآن كناية أخرى عن (البخل) الذي يثبأ بسبب السهو عن الصلاة وسراة الناس، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿قَوْلِ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٢).

﴿يَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ كناية تُوحي بمعان كثيرة، ومن معاني هذه الكناية ما ذكره بعض المفسرين: " الماعون: الزكاة، وعن ابن مسعود: ما يفعلون في العادة من القاس والقدر والدلو والمقدحة. وعن عائشة: الماء والنار والملح " (٣) والكناية شاملة لهذه المعاني ودالة أيضاً على كل بر يمتعه الإنسان في كل صوره وأشكاله بدافع (البخل) الذي تشير إليه عبر الوساطة (منع الماعون) التي تمثل حركة حسية مجسمة يسببها البخل. وهذا البخل ناشيء كما يقرر التعبير القرآني من السهو عن الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فهم لم يقيموا الصلاة على وجهها، ولو أنهم أقاموها حقاً لظهرت آثارها في السلوك والواقع، ومن هذه الآثار مد يد العون للناس.. وبذلك فإن إقامة الصلاة على وجهها الصحيح تدشء آثارها العملية الخلقية الإيجابية من خلال تنميتها بغرائز الخير وتهذيبها لغرائز الشر، التي تمثلت هنا في الكناية بصفة (البخل) بوصفه قيمة خلقية سلبية يحذر القرآن منها المؤمنين، ويشد التحذير من هذه الصفة عندما يبنى القرآن عليها بالفحشاء، وذلك في قوله - تعالى - في سياق حث المؤمنين على الإنفاق من طيبات ما يكسبون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ مَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٤).

(١) الكشف: ١ / ٦٢٧ - ٦٢٨.

(٢) سورة الماعون، الآيات: ١، ٢، ٣، ٤.

(٣) الكشف: ٤ / ٦٤٣، وينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٦١٩.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٢٦٧ - ٢٦٨.

الآية نداء عام للمؤمنين تحثهم على الإنفاق من جميع أنواع المال الحلال الطيب في كل صورة وأشكاله.. ويكنى عن (البخل) بالفحشاء ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ جاء في أساس البلاغة: "فلان فاحش أي بخيل، ومنه: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾" (١) وجاء في لسان العرب: "الفحش والفحشاء والفاحشة القبيح من القول والفعل، وجمعها الفواحش.. وهو كل ما يشد قبحه من الذنوب والمعاصي.. وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا ويسمى الزنا فاحشة.. وأما قول الله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ قال المفسرون: معناه يأمركم بأن لا تصدقوا، قيل: الفحشاء ههنا البخل، والعرب تسمى البخل فاحشاً" (٢) وجاء في التفسير: "﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمُ الْفَقْرَ﴾: أن الأسر في بخلكم بصرف الطيب وأقدامكم على صرف الردي هو مخافة الفقر الذي أنزركم الشيطان به حيث وسوس في صدوركم أنكم إذا صرفتم الجيد يبقى لكم الردي.. ويأمركم بالخصلة الفحشاء، أي البخل واللوم ومحبة الأمور العاجلة التي تكون سبباً لمباشرة المعاصي الفاحشة، ولذلك تصرفون ما لا خير فيه" (٣).

فالفحشاء كناية عن (البخل) ولكنها تخرجه بظلال بشعة موحية مكنسية من إحياءات الكناية الدالة على ما يشد قبحه من الذنوب والمعاصي، فيتجلى التهذيب الخلقي الذي تبعته في نفوس المؤمنين فتقرهم أشد ما يكون التنفير من البخل والشح بوصفه معصية فحش فنتجاوز الحد، لأنها تمتعهم من الإنفاق في سبيل الله، وتبعث في نفوسهم الخوف من الفقر، أو انفاق الردي الخبيث بدلاً من الحلال الطيب، الخبيث الذي تعافه النفس فلا تقبله إلا على نحو من التغافل والتساهل والامتصاص كما تصور الكناية هذا المعنى النفسي من خلال حركة اغماض العين (٤) التي تشير إليه: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيذٍ إِلَّا أَنْ تَنْمِئُوا فِيهِ﴾

ثم يكشف السياق القرآني عن الباعث الحقيقي الأمر بكل هذه المعاني: بخل النفس وامساكها عن الإنفاق، أو انفاق الردي الخبيث، والخوف من الفقر، يكشف عن باعثه وهو الشيطان: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمُ الْفَقْرَ...﴾ فهو الأمر بكل فحشاء.. ويتصاعد التنفير في النفوس والقلوب مما يأمر به الشيطان ويتعد.

(١) ص ٣٣٥ (فحش). وينظر: الكشف: ١ / ٣٩٦.

(٢) ٢٢٥ / ٦ - ٢٢٦ (فحش).

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) ينظر: المفردات، ص ٥٤٨. وينظر: الكشف: ١ / ٣٩٦.

فتتحقق الكناية (الفحشاء) في سياقها الاستجابية النفسية التي يهدف القرآن إلى بعثها في قلوب المؤمنين والتي تمثلت في تجنب (البخل) بوصفه قيمة خلقية سلبية لا تليق بحياة المؤمنين.

تصغير الخلد:

ينهى القرآن الكريم عن التكبر بوصفه سلوكاً خلقياً مذموماً، قال عنه علماء النفس بأنه "شعور ذاتي بالحاجة إلى أن تتفوق الشخصية على الآخرين، أو أن تسيطر نفوذها عليهم، أو تصبح متميزة منهم بشكل أو بآخر ويأتي شعور المرء بالتكبر أو العلو نتيجة إحساسه الداخلي أو الذل فيقوم بتعويض ذلك بتكلف التعالي على الآخرين" (١). ويعلل أحد المفسرين سبب ذم التكبر قائلًا: لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس" (٢).

وحين ينهى القرآن عن هذه الصفة النفسية المذمومة، فإنه يوظف الأسلوب الكناي المصوّر للمعنى فيبرز تلك المشاعر النفسية المريضة ويجسدها في وضع ظاهر للعيان من خلال تلك الحركات المادية التي يصطنعها المتكبرون.

منها كناية (تصغير الخلد) الواردة في قوله - تعالى - على لسان لقمان الحكيم يعظ ابنه بالتواضع للناس ولين الجانب لهم، وينهاه عن التكبر: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٣).

قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ﴾ كناية عن صفة التكبر، وهي تصوّر المتكبر في صورة فدية بالغة التأثير، إذ يرسم فيها المتكبر شخصاً مريضاً، وذلك لأن (الصَّغَر) "داء يأخذ البعير فيلوي منه عذقه ويميله" (٤)، فهو مريض يصيب الإبل فيلوي أعناقها فتمشي معوجة العنق متقلبة الوجه إلى أحد الشقين، فهو منظر يثير العطف في المشاهد.

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني: ١ / ٢٣٥. وينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم، ص ١٥٢.
(٢) التفسير الكبير: ٢٩ / ٢٩٤.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٨.
(٤) لسان العرب: ٤ / ٤٥٦ (صغر).

يعتمد القرآن بهذا التصوير الكنائي إلى هذا المرض فيصم به المكبر المتعالي المعرض بوجهه عن الناس، وهو يحسب بذلك الباعث النفسي المريض أن له هيبةً ومكانةً، وأن ذلك يزيد ترفعاً وجاهاً. وهو في حقيقته كما تخرجه الكناية شخص مريض، وبدلاً من أن يثير الرهبة والخوف في نفوس الآخرين يثير السخرية والإزدراء لأنه اصطنع في مظهره صورة منكرة شديدة النكر.

وبذلك تكثف الكناية دلالة التنفير من هذا السلوك الاجتماعي (التكبر)، فإن النفس السوية لا ترضى أن ترسم في هذه الصورة الزرية وهي تمشي بين الناس، كما تجلي الكناية سمة فنية للقرآن في رسم صورته، وهي توظيفه لعناصر بيئية، وذلك ليكون المشهد أقرب إلى أنفسهم، وأكثر تأثيراً في حسهم (١). كما في هذه الكناية التي يعرفها العرب في بيئتهم.

في الرؤوس:

ويصور القرآن بهذه الكناية أعراض المنافقين واستكبارهم على نحو مخصوص، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ صَلُّوا رَبَّكُمْ رُسُلَ اللَّهِ تَوَارَوْهُ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢).

الكناية: ﴿تَوَارَوْهُ وَهُمْ﴾ حركة مادية تجسد حالة نفسية خاصة بالمنافقين، يُقال: "الوي الرجل برأسه ولوى رأسه وأعرض. ولوى رأسه ولوى برأسه: أماله من جانب إلى جانب" (٣). وقال الزمخشري: "عطفوها وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً. والتشديد للتكثير" (٤) والمبالغة. فهي كناية عن استكبارهم وإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ للاستغفار لهم. والكناية تدل بالتشديد على أنهم قد اعتادوا هذه الحركة بكثرة، لأن تضعيف العين في الفعل يدل على تضعيف الفعل، أي أنهم قد كرروا هز رؤوسهم وتحريكها مما

(١) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، ص ١٧٣.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٥.

(٣) لسان العرب، مادة (لوى): ١٥٠ / ٢٦٤.

(٤) الكشاف: ٤، ٤٣٣.

يؤكد دلالة استنكار المنافقين وإعراضهم فضلاً عن استهزائهم، وقد يكون المراد تكثير محال الهز- وهي الرؤوس- أي لوى جمع كثير منهم رؤوسهم استهزاء واستنكاراً (١)

التمطي:

ورنت هذه الكناية في موضع واحد من القرآن في قوله - تعالى -: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَلٌ ۚ ثُمَّ دَعَا إِلَىٰ أَعْلِيهِ يَسْكُنُ ۚ أَتَىٰكَ لَكَ قَاتِلُكَ ۚ﴾ (٢)

تصوّر الكناية مشية الإنسان الكافر الموصوف في هذا النص القرآني (٣) لأن المط: السد، يقال: مطوت بالمقوم مطواً إذا مددت بهم في السير، وتمطى النهار: امتد وطال، وتمطى بهم السفر: امتد وطال، وكل شيء مدنته فقد مطوته، والمطية من الدواب: التي تمط في سيرها، وهو مأخوذ من المطو أي المدّ (ومن دلالة المط على المد جاء " التمطي " ليدل على التبخر ومد اليدين في المشي) (٤) وأصل ﴿يَسْكُنُ﴾: يتمطط فقالت الطاء فيه حرف علة كراهة اجتماع الأمثال. ومعنى يتمطط: يتمدد لأن المتبخر يتمد خطاه، وهي مشية المعجب بنفسه، وقيل المعنى: يتمد خطاه أي ظهره ويلويه من التبخر (٥). والتكلف والتصنع واضح في مشية هذا الإنسان الكافر المغرور يدل على ذلك صيغة (تفعّل) التي تفيد هذا المعنى (٦)

فالكناية تصوّر التكبر المنبعث من الإعجاب بالنفس من خلال حركة الجسد كله وليس من خلال الرأس وهزه أو تصغير الخد كما في الكنيتين السابقتين، وبذلك تدعاه دلالة كراهية هذه المشية والسخرية اللاذعة بهذا الذي يتمطي، فضلاً عن أن هذا المشهد يأتي مباشرة بعد مشهد الاحتضار المتصل بمشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿كَلَّا لَئِنْ جِئْتُمُ الْمَآلِئَةَ ﴿وَنَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۚ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْمِئَةٌ ﴿تَقُولُ أَنْ هَٰؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ كَلَّا إِذَا

(١) ينظر: لغة المنافقين في القرآن، د. عبد الفتاح لا شين: ٢ / ٢٣٤، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٤٤.

(٢) سورة القيامة: ٣٢- ٣٣.

(٣) قيل أنها نزلت في أبي جهل. ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٤٨٨، ولباب القول في أمجابه النزول، ص ٧٧٦.

(٤) ينظر: لسان العرب: ١٥ / ٢٨٤- ٢٨٥ (مطا).

(٥) ينظر: الكشف: ٤ / ٥٣١، والتفسير الكبير: ٣٠ / ٢٣٣.

(٦) ينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم، ص ١٦٦.

بَلَّغْتَ الْفَرَقَ ﴿١﴾ وَقِيلَ مَنْ رَافٍ ﴿٢﴾ وَكَرَّ أَنْ يَرْتَأَى ﴿٣﴾ وَالْفَتَى الشَّاقُّ بِالشَّاقِ ﴿٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ بِيَوْمِكَ الْمَسَاءِ ﴿٥﴾ فَلَا صَکَّ وَلَا
مَلَّ ﴿٦﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَوْلٌ ﴿٧﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمُتِلُ ﴿٨﴾ (١)

وهذا تصوير على نسق خاص كان ليس بينهما فاصل زمني، ذلك أنه " عرض
مشهد الاحضرار المقبل، كأنه حاضر الآن! ثم جعل الحداية الحاضرة، كلها من ذكريات
الماضي ! ليرى هذا الذي التفت منه الساق بالساق من الهول والرعب، أو من الداء
والآلم، وبلغت روحه التراقي، وتساءل من تساءل: ألا من راق يرقيه ويرفع عنه هذه الحال،
وتوقع هو أنه مفارق هذه الدنيا وما فيها.. ليرى صورته هذه، ويستحضر في خياله صورته
الأخرى. وهو يكذب ويتولى، ويذهب إلى أهله يمتطي، تيهأ وكبرا " (٢)، فمن شأن هذا
النسق الخاص للأسباق القاء الضوء على هذه الشخصية المغرورة الغافلة في تبخترها
واعجابها بنفسها فتتكبر وينتظرها هذا المصير الذي سيفاجئها بسرعة فهو التيه والضللال
والغفلة.

ثني العطف:

ولون آخر من ألوان التكبير في الحركة والشعور تجسده الكناية (ثني العطف) في
قوله - تعالى -: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِضَلَّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٣﴾

الكناية التصويرية قوله - تعالى -: ﴿ ثَانِي عَطْفِهِ ﴾ تجسد حالة نفسية متعجرفة
وذلك من خلال حركة ثني العطف. والعطف: المنكَب وعطفا الرجل: جاذباه عن يمين
وشمال وشقاه من لدن رأسه إلى وركه " (٤) وهي حركة تشير إلى معنى " الكبر والخلاء،
كتصغير الخد ولي الجيد. وقيل: الإعراض عن الذكر " (٥) وقال الراغب: " ثاني عطفه:
عبارة عن التنكر والإعراض، نحو: لوى شذقه، ونأى بجاذبه " (٦) فهو (التكبر) المنبعث
عن الإعراض عن آيات الله، وهذا المعنى المكنى عنه هو أقرب إلى السياق.. وهو صورة

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٠ - ٣٣.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن، ص ٦٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٨.

(٤) لسان العرب، مادة (عطف): ٩ / ٢٥٠. وينظر: المفردات، ص ٥٠٦.

(٥) الكشف: ٣ / ١١٥.

(٦) المفردات، ص ١١١.

من التكبر شديدة الكراهية لكونها تتعلق بآيات الله والجدال فيها بغير علم بهذا الباعث النفسي الممقوت، وكون الثاني عطفه يجادل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي لا يستند إلى حقيقة يركن إليها ولا حق يجادل عنه، فإنه يعوّض عن فراغه النفسي والعقلي بتلك الحركة الدالة على تكبره وإعراضه، فضلاً عن أنه مضلّ لغيره عن الهدى والكتاب المنير.

انقراض الرؤوس:

يقدم القرآن بهذه الكناية لونا آخر من ألوان التكبر عن الإيمان باعثه التعجب والاستهزاء من فكرة إعادة الحياة بعد الموت وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا لَوَلَّيْنَا لِمَعْمُورِينَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (١).

في النص الكريم كنايةان، الأولى: قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ والثانية: ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال الزمخشري: "لما قالوا: أنذا كنا عظاماً قيل لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ فردّ قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: انكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحس وعضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هو عمود خلقه الذي يبنى عليه سائرته، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر، - وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الحساسة والصلابة - لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني أو خلقاً مما يكبر عنكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياءه فإنه يحييه " (٢) وهؤلاء الكافرون لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً، ولكنها كناية تشير إلى معنى التحدي والتعجيز لهم، فضلاً عن توبيخهم وتقريعهم، لأن الكناية بالحجارة والحديد وهما من الجماد الذي لا يحس ولا يشعر فيهما إحياء إلى ما في انكارهم للحياة بعد الموت كما أفاد الاستفهام الإنكاري

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤٩ - ٥٢.

(٢) الكشف: ٥٢٤ / ٢. وينظر: صفوة التفسير: ١٦٣ / ٢.

بالبهزة: ﴿أَوَدَا كُنَّا عَقْلًا وَرَفْنَا...﴾ من جمود أو تحجر، أو أكبر من هذا الإحياء وأعمق كما أفاد التعبير بعد الكناية ﴿أَوْخَلَقْنَا مَعَايَكَ كَبُرَ فِي صُدُورِكُمْ﴾ والذي يُوحى بتطاولهم واستهزائهم وتكبرهم كما تجسده الكناية ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ وهي كناية حركية بتلك الرؤوس المتعجبة المستهزئة والتي تحمل ذلك التصور المتحجر الجامد، قال الأفراء: "يُقال أنغض فلان رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل" (١) كالمتعجب من الشيء، وقال الزمخشري: ﴿فَسَيَنْفِضُونَ﴾ فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاءً (٢). فالمكنى عنه هو: التعجب والاستهزاء المبيح عن تلك الحالة النفسية المتكبرة عن الإيمان المستنكرة، وتتصاعد دلالة الانكار وتنتعق بالاستفهام بالأداة متى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ الذي أفاد الانكار والاستبعاد لليوم الذي يُبعث فيه الموتى للحياة والحساب والجزاء.

الإعراض والناي بالجانب:

تصوّر هذه الكناية تكبر الإنسان حين النعمة والرخاء، ويأسه وقتوطه حين الشدة، نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا أَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِنَّا مَتَّةُ الشُّرَكَانِ يَئُوسًا﴾ (٣). الكناية في - تعالى -: ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ والإعراض والناي بالجانب حركة يُراد منها ما تشير إليه من معنى الاستكبار وباعثه الطغيان. وفي الكناية تأكيد لهذا المعنى المكنى عنه، لأن ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ تأكيد للإعراض، قال الزمخشري: "الإعراض عن الشيء أن يوليّه عرض وجهه. والناي بالجانب: أن يولي عنه عطفه ويوليّه، وأراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين" (٤)، فالكناية تكشف عن صفة من صفات النفس المستكبرة في حين النعمة من صحة وسعة في الرزق.. فتتصور هذه النفس أنها مستغنية عن الله مستبدة بنفسها، فهي نفس معرضة لا تذكر ولا تشكر، بل هي تطغى وتبطر وتستكبر.. والجزاء الأخير من الآية يكشف عن الجانب الآخر المضاد لهذه الحالة النفسية: ﴿وَإِنَّا مَتَّةُ الشُّرَكَانِ يَئُوسًا﴾ حين الشدة من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله (٥).

(١) التفسير الكبير: ٢٠ / ٢٢٦.

(٢) الكشف: ٢ / ٥٢٤. وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ١٦٤.

(٣) سورة الاسراء، الآية: ٨٣.

(٤) الكشف: ٣ / ٥٣٨.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ٥٣٨.

ونلاحظ في حالة ياذمة حين الشدة والبلاء حركة خفية تقابل حركته عند تكبره وبطره، حركة تلمحه فيها مطأطأ الرأس مخفوض الجانب من شدة اليأس والقنوط. فهذا الإنسان في الحالتين: حالة الاستكبار، وحالة اليأس والقنوط مجانب لطريق الله، طريق الهدى.

وبذلك تلمح الآية بمجملها إلى قيمة الإيمان بالله والاتصال به في الحالتين، فهو رحمة في السراء والضراء على حد سواء.

ونلاحظ في الحالتين النفسيتين المتقابلتين على التضاد في هذا النمط من البشر، أن التأكيد والقوة في التعبير تجلّ في التعبير الكنائي عن حالة الاستكبار المنبعثة عن طغيان الإنسان حين النعمة والرخاء أكثر من الحالة الثانية في التعبير عن اليأس والقنوط حين الشدة والابتلاء، فالقوة التعبيرية في الكناية تمثلت في:

١ - تصوير المعنى المكنى عنه بحركة مادية حسية، والتصوير الحسي للمعنى أكثر تأثيراً

من التعبير الذهني المجرد، شأنه شأن من يأتي ببينة على ما ادعى.

٢ - تأكيد حركة الاعراض بقوله: ﴿وَنَافِثَاتٍ﴾ مما دل على تغلغل هذه الحالة الشعورية وتمكنها من النفس. وهذا لا نجده في الحالة المقابلة لها.

وبذلك تنجلي دقة التعبير القرآني في الكشف عن أسرار النفس الإنسانية في تأثراتها وتقلباتها وإظهارها بشكل محسوس، فالله الذي خلق النفس الإنسانية هو أعلم بها من حاملها، ويعلم أي الأشياء ترغبها وتنجذب إليها، وأيهما مدعاة للذفور والرهبة.. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١).

المشي على الأرض هوناً:

يقدم القرآن بهذه الكناية صورة وضيفة في معانيها وإحياءاتها تقف على التضاد من الصور الكنائية السابقة التي أشارت إلى ألوان من التكبر على الناس والاستكبار والإعراض عن آيات الله.

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

هذه الكناية تصوّر خلقاً إيجابياً من أخلاق المؤمنين و هم يمشون بين الناس كما يصفهم بقوله - تعالى - : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (١).

والكناية ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ تنكشف الدلالة فيها بالصفة ﴿هَوْنًا﴾ فهي تشير إلى معنى الرفق الذي يتحلّى به هؤلاء الموصوفون بأنهم ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ بهذه الإضافة التي ترفعهم وتخصصهم. قال الزمخشري: "﴿هَوْنًا﴾ حال، أو صفة للمشي، بمعنى: هينين. أو: مشياً هيناً، إلا أن وضع المصدر موضع الصفة مبالغه. واليهون: الرفق واللين" (٢). والمعنى المكنى عنه: السكينة والوقار والتواضع (٣). فهم لا يضربون الأرض بأقدامهم ولا يشنون أعناقهم ويلوون رؤوسهم.. وإنما هو اللين والتواضع بتجسد في مشيتهم على الأرض برفق، فهم عباد الرحمن واليه ينتسبون، تفيض من نفوسهم الرحمة بالناس والمغفرة لهم ﴿وَلَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: "قالوا سداداً من القول يسمعون فيه من الإيذاء والاثم. والمراد بالجهل: السفه وقلّة الأدب" (٤). فهو الحلم والأدب والصقح الجميل الذي يتصف به عباد الرحمن.

تشبيات الأقدام:

بصوّر القرآن بهذه الكناية الصمود والنصر الذي يمدحه الله لعباده المؤمنين الذين ينصرون الله ﷻ وذلك في قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُخْرِجْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٥).

الكناية التصويرية ﴿وَيُخْرِجْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: "أن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم ﴿وَيُخْرِجْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي ويشبّكم في مواطن الحرب" (٦) وحسّدت الكناية المعنى بالأقدام لأدائها آلة الوقوف والمشي و "الثبات والتزلزل يظهران فيها" (٧) فهي التي يركّز عليها الجسد

(١) سورة الفرقان ، الآية: ٦٣.

(٢) الكشف: ٢٢٩ / ٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ٢٠٣.

(٤) الكشف: ٢٣٠ / ٣.

(٥) سورة محمد ، الآية ٧. وينظر: سورة البقرة ، الآية: ٢٥. وسورة آل عمران ، الآية: ١٤٧.

وسورة النحل ، الآية: ٩٤.

(٦) صفوة التفسير: ٣ / ٢٠٧.

(٧) صفوة التفسير: ٣ / ٢١٥.

فاذا زلّت انهار، وإذا ثبتت استقام وثبت فهو التصوير الحسي الذي يشير إلى المعنى المُكنى عنه الذي يتمثل في الصمود في أرض المعركة والثبات عند مواجهة الكافرين الذي يجلب النصر عليهم.

والبادي أنّ المعنى المُكنى عنه لا يقتيد بالصمود والنصر في مواطن الحرب حسب، وإنما هو النصر في كل مجالات الحياة، ومنه الصمود والثبات في مجاهدة العدو والانتصار عليهم، ولا يتم ذلك إلا حينما يكون الثبات على الدين^(١)، والاستقامة عليه والعمل على رفعته، ومجاهدة العدو، ودفعه بكل قوة وقدرتوهي من صور نصرة المؤمنين ربهم الله ﷻ^(٢)، وقال الزمخشري في الكناية نفسها الواردة في موضع آخر في قوله - تعالى -:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرُلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣) قال: "﴿فَتَرُلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزل أقدامكم عن حجة الاسلام بعد ثبوتها عليها: ﴿وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ﴾ في الدنيا يصودكم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وخروجكم من الدين، أو يصدكم غيركم، لأنهم لو نقضوا إيمان البيعة وأر تنووا، لآخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها" (٤).

فالكناية تصوير حسي لحقيقة النصر في مواطن الحرب بوصفها نتيجة من الثبات على محجة الاسلام أو دين الله الذي بايع المؤمنون ربهم عليه، فثباتهم عليه وإخلاصهم فيه يترتب عليه النصر ليس فقط في مواطن الحرب وإنما في كل جوانب الحياة.

القتال في قرى محصنة أو من وراء جُدُر:

يكثف القرآن من خلال هذه الصورة الكنائية الموحية دلالة خلقية لليهود واخوانهم المنافقين تتمثل في جنبهم وخوفهم من مواجهة المؤمنين في ميدان القتال، بل توحى الكناية بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء بأن (الجبين) صفة ملارمة ثابتة في شخصيتهم،

(١) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: ٢ / ٣٩٦. وينظر: "ألفاظ التصريح والتمكين في القرآن الكريم دراسة دلالية"، د. عبد الوهاب محمد علي العدوانى وعصام عبد يحيى، ص ١٤١. (مجلة آداب الزرافين، العدد: ٢٣، ١٩٩٢).

(٢) ينظر: "مقومات النصر في القرآن الكريم"، د. كاسد ياسر الزبيدي، ص ١٨. (مجلة آداب الزرافين، العدد ٢٣، ١٩٩٢).

(٣) سورة النحل، الآية: ٦٤.

(٤) الكشف: ٢ / ٤٩٢.

وذلك في قوله - تعالى - ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍّ مُدْرِمٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

قال الزمخشري في هذه الآية: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ كالتين ﴿ فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ ﴾ بالخدائق والدروب ﴿ أَوْ مِنْ وَادٍّ مُدْرِمٍ ﴾ دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم ﴿ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعني: أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا؛ ولو قتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة. لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عنه عند محاربة الله ورسوله ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ﴾ متفرقة لا ألفة بينها، يعني أن بينهم إحنًا وعداوات، فلا يتعاضدون حق التعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة (٢)، وقوله ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍّ مُدْرِمٍ ﴾ الذي أعدناه كناية، وإن كان يشير في ظاهره إلى اتخاذ اليهود والمنافقين أسباب القوة والحيلة والحذر عند مواجهة جنود الله المؤمنين في ساحة القتال، إلا أن بناءه جاء في أسلوب القصر الذي أفاد قصر قتالهم على صورة التحصن بالقرى أو التحصن بالجُدُر لا يذصرف إلى صورة غيرها، والمراد به الجبن الذي يتصف به اليهود وحفاوهم من المنافقين حينما التقى المؤمنون بهم، فالكناية تقرر حالة قائمة في نفوسهم، وحينما انكشف اليهود والمنافقون في أرض المعركة فإنهم يولون الأدبار جبنًا وخوفًا من المؤمنين.

وتوحي الكناية من طرف خفي بعث المؤمنين وتشجيعهم على مقاتلتهم لكسر شوكتهم.. وذلك لأن المؤمنين خلاف هؤلاء بملاحذهم النفسية التي جلتها الآية الكريمة ﴿ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ و ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ﴾، فالمؤمنون متضامنون متعاونون يجمعهم ويقويهم الإيمان بالله، فهم قلب واحد، وقوة واحدة في أفتنهم وتعاضدهم، فهم يرمون عن قوس واحدة.

الإصعاد واللي:

وردت هذه الكناية في مشهد من مشاهد معركة أحد تجسد حالة الضعف والهزيمة النفسية للأقارن من جيش المسلمين المرتدين عن أرض المعركة إما أصابهم من دهش

(١) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٢) الكشاف: ٤/ ٤٠٥، ٤٠٤.

وذعر، ترد هذه الكناية إزاء صورة كنادية أخرى على التقابل تجلّي ثبات الرسول ﷺ وشجاعته في أعلى صورها، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ **إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ عَمَّا يَتَوَلَّوْنَ تَحَرُّوا عَلَى مَا قَاتِكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾^(١).

فالاية تقابلت فيها كنيستان على التضاد تجلّي حالتين خفيتين في صورة حسية حركية، الأولى: ﴿ **إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ** ﴾ في وصف المسلمين المقاتلين الذين ارتدوا على أدبارهم من أرض المعركة. والثانية: ﴿ **وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ** ﴾ الثابت يدعو إليه المؤمنين الفارين فيمن تأخر سعه في أرض المعركة. والحركة الحسية في الكناية الأولى تمثلت في الارتفاع واللي، والاصعاد: الذهاب في الأرض والابعاد فيه، يُقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض^(٢)، ﴿ **وَلَا تَكُونُوا** ﴾ ولا تقيمون ولا تعطفون ولا تميلون ﴿ **عَلَى أَحَدٍ** ﴾ لأن من مال إلى شيء يلوي عنقه إليه^(٣). والكناية الثانية: ﴿ **وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ** ﴾ كان يقول: ((إني عباد الله إني عباد الله أنا رسول الله من يكره فله الحنة)) ﴿ **فِي أَخْرَجِكُمْ** ﴾ في سفلتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة^(٤).

فالكناية الأولى في حركتها الحسية، القوية تصور ذلك الانفعال الحسي القوي المتمثل في الخوف والذعر، فلا يظفرون إلى ورائهم لشدة الدهشة ولا يعطفون على أحد ولا مدافعة.. وإزاء هذه الصورة الكنائية التي جسدت حالتهم النفسية المكروية، تجلّي الكناية المقابلة ﴿ **وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ** ﴾ معناها المكنى عنه المتمثل في ثبات الرسول ﷺ وشجاعته في ذلك الموقف العصيب، فهو الثبات في الصورة والمعنى في أحلك المواقف كما تعمل هذه الكناية على تعميق معنى الهزيمة وتضعيدها في حس الفارين من أرض المعركة وذلك من خلال التضاد في المعنى، فكان يجب عليهم أن يكون لهم أسوة حسنة في الرسول ﷺ في ثباته وصبره وشجاعته، فما يكون لهم أن يفروا ويتركوا رسول الله راغبين بأنفسهم عن نفسه.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

(٢) الكشف: ١ / ٤٧١.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٢٧٤.

(٤) الكشف: ١ / ٤٧١.

ولا يخفى ما في ذلك من ابتلاء للمؤمنين: ﴿فَأَتْبَعْتُمْ غَمًّا بَقَرًا﴾ أي: "فجازاكم الله غمًّا" حين صرفكم عنهم وابتلاككم ﴿بَقَرًا﴾ بسبب غم أنقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له أو غمًا مضاعفًا غمًّا بعد غم وغمًّا متصلًا بغم من الاعتصام ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ لتتمرتوا على تجرع الغموم وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المصائب^(١). فهو الابتلاء الذي يعمل على إثارة النفوس والقلوب لإزالة الضعف الذي حلّ ضمن المنهج التربوي للقرآن الكريم في معالجة النفوس والقلوب ولا سيما وهي تواجه الأحداث العظام.

غض الأبصار والضرب بالأرجل:

يُعلم القرآن المؤمنين والمؤمنات القيم الخلقية الإيجابية ويأمرهم بالالتزام بها، لما لها من دور فاعل في بناء المجتمع الذي يهدف إليه القرآن، وبالمقابل ينهاهم عن الأخلاق السلبية التي تعمل على هدم هذا المجتمع وتحطيمه. وهو إذ يُعلم المؤمنين والمؤمنات ويأمرهم وينهاهم، فإنه يخاطبهم بالأسلوب البياني المؤثر الذي يؤدي المعنى في حيوية وقوة تأثير يظل معها عالقًا في الذهن يحدث الاستجابة الوجدانية التي يبتغيها القرآن.

ومن ذلك الكنيتان الواردتان في قوله - تعالى - خطابًا للمؤمنين والمؤمنات: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلَ الَّذِي لَا يَظْهَرُ عَلَى عَوَاتِ السَّكَّةِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)

ثمة نلاحظ كسائتين، الأولى: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ في مخاطبة المؤمنين و ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ في مخاطبة المؤمنات. والثانية: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ في نهى المؤمنات عن الضرب بالأرجل والكناية الأولى تشير إلى المعنى

(١) نفسه: ١ / ٤٧١.

(٢) سورة النور، الأيتان: ٣٠ - ٣١.

المكنى عنه عن طريق حركة في العين هي غضها. والغض "التقصان من الطرف" (١)، وهي حركة يُراد منها ملزومها وهو (العفة) عن النظر في المحارم. ففي الكناية أدب أخلاقي ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجود والأجسام، كما أن فيها إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية (٢). لذلك تقدمت الكناية (غض البصر) على حفظ الفروج لأن "النظر يريد الزنا ورائد الفجور، وهو مقدمة في الوقوع في الخطر" (٣). وأن حفظ الفروج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر (العفة)، ومن ثم يجمع بينهما في سياق واحد، بوصفهما سبباً ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع (٤).

ثم تتكرر خطاباً للمؤمنات يأمرهن بغض أبصارهن كما أمر الرجال فلا يرسلن بنظراتهن الهاتفة المثيرة، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال (٥)، وبذلك يتحقق التوازن في الاستجابة والطاعة من المؤمنين المخاطبين جميعاً فتشيع العفة والطهارة في المجتمع التي تعمل على عدم تلوثه بالانفعالات الشهوية وعدم ارتكاسه إلى النرك الحيواني الهابط. ثم تأتي الكناية الحركية الثانية تنهي المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة، ويهيج الشهوات الكامنة زيادة في الوقاية والحد من سبباً في الوقوع في الفاحشة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ فالمكنى عنه هو رغبة النساء في اظهار زينتهن جاء في تفسيرها: "أي لا يضربن بأرجلهن الأرض لنلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض، قال ابن عباس: كانت المرأة تمشي بالاناس وتضرب برجلها ليعلم صوت خلخالها، فهي الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان" (٦).

وبذلك تتجلى عناية القرآن الكريم بالمجتمع وحفظه، وذلك من خلال توضيق فرص الغواية والفتنة، وسد الطريق أمام الأسباب التي تؤدي إلى الفاحشة من نظرة أو حركة مقصودة تثير في النفس الشهوة وتزرع في القلب الفتنة. وبذلك تُصان الأعراض

(١) المفردات، ص ٥٤٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٣) صفوة التفسير: ٢ / ٣٣٩.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٦) صفوة التفسير: ٢ / ٣٣٦-٣٣٧.

والمجتمعات من الجرائم والفواحش، ويشيع الأمن والطمأنينة في المجتمع وفي القلوب والنفوس.

مد العين :

يدعو القرآن بالأسلوب الكناي إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية، وإلى الصلة بالله والرضى به، كي تحسن النفس بالاستعلاء على زخارف الدنيا الفانية وهي تبهير الأنظار وتجذب النفوس إليها. نلاحظ ذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْهُ أَمْوَالٌ بَاطِلَةٌ وَلَٰكِنَّهَا مَتَّعَتْهُمُ زُخْرُفَ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمُ فِيهَا وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ ﴾ (١)

الكناية التصويرية ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ فالعين لا تمتد، إنما يمتد النظر، ولكن الكناية تصور المعنى فتجعل العين ذاتها ممتدة إلى المنظور إليه بهذا الاسناد المجازي التصويري، أي إسناد الفعل ﴿ تَمُدَّنَّ ﴾ إلى العيتين فتشير الكناية إلى المعنى المكنى عنه وهو استحسان المنظور إليه والإعجاب به، وتأثيره في النفس يكاد النظر معه لا يرد. قال الزمخشري : " ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي نظرك عيتك، ومد النظر : تطويله، وأن لا يكاد يردّه، استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له.. ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركز في الطباع وأن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملا منه عينيه: قيل ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به.. ﴿ أَمْوَالٌ بَاطِلَةٌ ﴾ اصنافاً من الكفرة " (٢).

ثم تأتي الاستعارة التصريحية لتجسد ذلك الشيء الذي تمتد إليه العين تجسده غاية في الزينة والبهجة ﴿ زُخْرُفَ الدُّنْيَا ﴾ فاستعمل الزهرة وهي جذابة بألوانها وتناسقها لزخرف الدنيا وزينتها، وذلك ليكون المعنى مصوراً غاية في الفطنة والتأثير.

ورغم جمال الصورة التي أخرجتها الاستعارة والذي تمتد إليه العين - كما أشارت الكناية استحساناً وإعجاباً - فإنه جمال متاع زائل سريع، كما لمحت الاستعارة إلى ذلك لأن الزهرة رغم جمالها وتأثيرها في النفس سرعان ما تذبل وتزول.. وفوق ذلك فهو للفتنة ﴿ لِيَفْتَنَهُمُ فِيهَا ﴾ على خلاف ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ فهو رزق للنعمة لا للفتنة، وهو طيب لأنه باق لا يخذل ولا يزول..

(١) سورة طه، الآية: ١٣١. وينظر: سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٢) الكشف: ٧٧ / ٣.

والكناية - وإن كانت خطاباً للرسول - ﷺ فإذها تخاطب المؤمنين فلا تمتد أظفارهم ولا تنهاوى نفوسهم أمام زينة الحياة الدنيا وزخرفها، ولا تنخدع بما يتقلب فيه الكافرون من نعم الدنيا وزينتها كما تصور ذلك كناية (التقلب) في موضع آخر في قوله - تعالى - : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١)، أي: "لا يخدعك تقلب الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب" (٢).

فالكناية ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيها تصوير حركة على نحو من الكثرة والمبالغة كما أفاد التشديد فيها فتشير إلى المعنى المكثف عنه وهو فيض الذم والمكاسب التي فيها يتقلبون، فهم يتقلبون من لون من النعيم إلى آخره، وكان هذا طابعهم ودينهم على الحد الذي يغري المؤمن ويخدعه، فينهى القرآن عن عدم التأثر مما هم فيه لأنها نعم زائلة لا تستند إلى القاعدة الأصلية (الإيمان)، فلا تلبث أن تزول - وإن أغرت وخذعت - قال الزمخشري: "لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أسقى منه عند الله، وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه، ولا يغره أقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتحارات النافعة والمكاسب المريحة، وكنت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون، فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقوة الأبد" (٣).

ومن وراء الكناية نلمح القيم الأصلية التي يحتكم إليها القرآن، القيم الباقية المتصلة بالله ﷻ، فليلاً لا تغتر بمظاهر الحياة الدنيا وزخرفها الزائلة والتي لا تعني شيئاً إذا ما كانت وسيلة للفساد والإفساد.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٦. وينظر: سورة غافر، الآية: ٤.

(٢) صفوة التفسير: ١ / ٢٥٣.

(٣) الكشف: ٤ / ١١٧.

التجافي عن المضاجع :

القومة الأصيلة هي الاتصال بالله والخوف منه والرجاء فيه، فهي القومة الباقية، والأمل الذي لا ينقطع، وهي الصورة الوضيئة التي يقدمها القرآن الكريم بالأسلوب الكناي وصفاً لنماذج من المؤمنين في قوله - تعالى - : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١).

الكناية: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي: " نتحى وتتباعد أطرافهم عن الأفرش ومواضع النوم، والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة.. قال مجاهد: يعني بذلك قيام الليل " ^(٢) فهي تشير إلى كثرة العبادة والتبدل إلى الله ﷻ في ظاهرها، ولكنها تجسد تلك الحالة الخفية التي يستشعرها هؤلاء المؤمنون المذوقون في معناها البعيد والتي تتمثل في شدة خوفهم من الله وعذابه، وشدة طمعهم ورجائهم في ثواب الله ومغفرته. وهم في خوفهم ورجائهم مخلصون لله بعيدون عن الرياء يدعون ربهم في الأوقات التي يعزُّ فيها الله

لا يراهم فيها أحد من الناس، لذلك فالسياق يبرز جزاءهم الذي أخفاه الله لهم عن جميع خلانقه، ولا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم التي لم تنم إلا قليلاً، فيتناسق الجزاء مع العمل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي: " لا تعلم النفوس أي نوع عظيم من الثواب أنخر الله لأولئك وأخفاه عن جميع خلانقه، لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، وعن النبي ﷺ يقول الله - تعالى -: ((أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا أَدْرِي أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، بَلَّاهُ مَا أَطْلَعْتَهُمْ عَلَيْهِ، اقْرَأُوا إِنَّ شَنْتُمْ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)) ^(٣).

والكناية ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ تجسد حالتهم النفسية المطمئنة الراضية غالية الرضا ^(٤) والسرور بالجزاء فلا تطمح إلى غيره. وهي حالة نفسية تقابل حالتهم النفسية الخالقة من الله الراجية رحمته التي صورتها كناية التجافي عن المضاجع في حياتهم الدنيا.

(١) سورة السجدة، الآيةان: ١٦- ١٧.

(٢) صفوة التفسير: ٥٠٤ / ٢.

(٣) الكشف: ٤١٥ / ٣.

(٤) ينظر هذه الكناية في فصل: (الكناية النفسية) من: ص ١٤٠.

ومن خلال عرض الكُنَايَات الخُلُقِيَّة يَتَبَيَّن وظيفة الكُنَايَةِ التَّعْبِيرِيَّة والنَّصُوبِيَّة في أداء الأفكار والمعاني التي يهدف القرآن تَثْبِيَّتُهَا في ذهن المُتَلَقِّي ونَفْسِهِ، فالقرآن لا يعرض تِلْكَ المعاني والأفكار بِتَعَابِير ذهنية مجردة، وإِذَا مَا يوظف الكُنَايَةَ بوصفها أسلوباً حيويّاً مؤثراً إذ يقوم بِنَصْبِهِ الفني الكامل في أداء المعاني وتَصْوِيرِهَا بِطَرِيقَةٍ من شأنها أن تَحْدِث الاستجابة الوجدانية المناسبة في القارئ أو السامع وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يهدف القرآن إلى تَثْبِيَّتِهَا في نفسه وقلبه أو تَغْيِيرِهِ مِنْهَا.